الابستمولوجية التكوينية عند جان بياجي

يرى **جان بياجي** من جهته أن الخطأ الذي ارتكبه الفلاسفة في موضوع المعرفة و الذي جعل أراءهم فيها تبقى عقيمة غير منتجة و غير مواكبة للتطور ، هو أنهم كانوا ينظرون الى المعرفة **كواقعه نهائية كاملة ، و ليس كعملية تطور و نمو** ، لقد شغل الفلاسفة أنفسهم دوما ، بالبحث عن مبادئ أو حقائق نهائية ، تقوم عليها المعرفة البشرية ، و لم تسلم من هذه الظاهرة المعيبة حتى العلوم الاخرى من رياضيات و علوم الطبيعية و انسانية ، حيث كانت ، الى عهد قريب ، تأخذ بعض القضايا المبدئية ، كل في ميدانه ، على أنها قضايا نهائية لا يجوز الشك فيها أو الطعن في صدقها . أما اليوم ، يقول **بياجي** ، و بفضل تقدم العلوم ، لم يعد هناك من يقول بمثل هذه القضايا النهائية . فجميع القضايا العلمية المبدئية **قابلة للمراجعة و التصحيح** . هذا من جهة ، و من جهة أخرى ليست هناك قضايا فارغة من المعنى و الى الابد ، بل هناك فقط قضايا فارغة من المعنى حاليا ، لأن **المعرفة ، كما قلنا ، ليست نهائية ، بل هي تنمو و تتعدل و تتطور باستمرار** .

و من أبرز مظاهر هذا التطور الذي عرفته المعرفة و فلسفة العلوم ، في العصر الحاضر ، هو **الفصل بين الفلسفة و الابستمولوجيا** . و هذا راجع ، كما يرى **بياجي** و غيره ، الى أن العلماء قد أصبحوا يهتمون بأنفسهم بدراسة الجوانب التى تهم فلسفة العلوم ، أو الابستمولوجيا ، كل في نهاية الخاص . و في هذا الصدد انكب بعض علماء النفس ، و على راسهم **بياجي** نفسه ، على دراسة **العلاقة بين المعرفة و النمو السيكولوجي للمبادئ و المفاهيم الفكرية** (مبدأ الهوية ، و عدم التناقض ، مبدأ السببية ، مفهوم العدد .....) و كان من بين نتائج هذه الدراسات الجديدة قيام نوع جديد من نظرية المعرفة هو **الابستمولوجيا التكوينية** التى تهتم بدراسة المعرفة دراسة سيكولوجية علمية بوصفها عملية انتقال من حالة دنيا الى حالة عليا .

و كما تعتمد **الابستمولوجيا التكوينية** ، التى اسسها **بياجي** ، على علم النفس ، و علم نفس الطفل بكيفية خاصة ، لمعرفة كيف تنمو المفاهيم العقلية ، تعتمد كذلك على المنطق قصد دراسة صورية لهذا النمو بمراحله المختلفة . و لذلك كان المنهج الذي تتبعه ، **منهجا مزدوجا** : التحليل المنطقي و التحليل التاريخي النقدي او التكويني .

اذن ، فان **المناهج التكويني في الابستمولوجيا** يستلزم النظر الى المعرفة من زاوية تطورها في الزمان ، أي بوصفها عملية تطور و نمو ، فانه لا بد من النظر الى المعرفة ، اية معرفة ، من الناحية المنهجية ، بوصفها نتيجة لمعرفة سابقة بالنسبة الى معرفة أكثر تقدما .

و عليه ، **فالتكوين** عند **بياجيه** فيرتبط ارتباطا وثيقا بمفهوم البنية الذي يخضع بدوره لمبادئ التحول و التطور ، فالتكوين هو انتقال من الحالة الى الاخرى ، التي ينبغي ان تكون اكثر تطورا و ثباتا من الحالة الاولى ، و على هذا الاساس بالذات يحصل تطور الطفل فتتم عملية التكوين و البناء بشكل متداخل و مستمر الى أن ينتقل الطفل من حالة البنية غير المستقرة الى حالة البنية المستقرة و الثابتة . و فكرة **التكوين** تعتمد على **مراحل النمو و التطور ، و عملية الانتقال و التحول .**

يعرف **باجيه الابستمولوجيا التكوينية** ، بوصفها ، دراسة المعرفة و بوصفها (محاولة لتوضيح المعرفة العلمية استنادا الى تاريخها ، و الى تكوينها الاجتماعي ، و الى الاصول السيكولوجية للافكار و العمليات التى تعتمد عليها بصفة خاصة) و من ثم فان بياجيه عندما اراد ان يدرس تطور التفكير عند الاطفال ، فقد ربطه بتطور المعرفة الانسانية منذ ولادة البشر .

فالتفكير الفردي ياخذ نفس المسار الذي اتخذه التفكير الانساني عبر العصور . فاذا كانت الفلسفة ترى احدى موضوعاتها في البحث في طبيعة الفكر الانساني و اسسه المنطقية ، فان **بياجيه** يرى ان علم النفس ايضا يستطيع ان يزود الفلسفة بالكثير من المعطيات في هذا المجال ، و ذلك عبر دراسة تطور التفكير عند الطفل . و انهما معا الفلسفة و علم النفس ، بالاشتراك مع علم الاجتماع ، يمكن أن تؤدي الى فهم صحيح و تطبيق ملائم ، الى ثروة في **المناهج و الطرق و الاساليب التربوية** في اكثر من مجتمع .

تنقسم **ابستمولوجيا التكوينية** الى فرعين : يبحث الاول في **مبادئ العلوم** ، و يهدف الى تقويمها بغية تفسير التطور الفكري للانسان وصولا الى وضع رؤيا مستقبلية لهذا التطور . و يسمى هذا الفرع علم تاريخ المعرفة رغم كونه أقرب الى الفلسفة منه الى العلم في مفهومنا الحديث . اما الفرع الثاني فانه يبحث في **تطور المعارف عند الانسان** الفرد منذ الولادة و حتى بلوغه سن الرشد ، و يهدف الى امرين : الاول : **تفسير الظواهر** المعرفية و الثاني **تحليل كيفية** توصل الطفل الى المعرفة ، و تفسير عملية التطور الفكري و يسمى في هذه الحالة الابستمولوجية التكوينية .

وعلى هذا الاساس، يحدد بياجيه **خمس مراحل رئيسية** من مراحل التطور المعرفي عند الطفل , التى تتمثل في : مرحلة **السلوك الحسي الحركي** ، مرحلة ما قبل **ادراك المفاهيم** ، مرحلة **النمو الحدسي** ، و منه مرحلة **العمليات الحسية المباشرة** و مرحلة **العمليات الصورية** ، و هكذا نجد أن تطور المراحل عند الطفل من المستوى الحسي الحركي الى المرحلة التجريدية يساعد على تهيئة التوازن عند الانسان . هذا الا ِ ازن الذي يؤدي الى مستويات أكثر فاكثر نضجا . فما تم اكتسابه عند كل فرد يبقى معه طوال العمر و يدخل في تهيئة مستويات اعلى من التوازن .

و منه، ترتكز نظرة **بياجيه** على تأثير **التركيب البيولوجي** للانسان على **قدرته العقلية** و تأثير **البيئة** على تركيب الفرد . فالفرد يسعى الى أن يستوعب البيئة التى يعيش فيها و يتكيف معها . و الذكاء عند **بياجيه** هو شكل من أشكال التكيف المتقدم ، و هو يتطور بواسطة عمليتي **الاستعاب و التلاؤم و الذكاء** لا يظهر فجأة ، فهو عملية توازن مستمرة ، و جهد مستمر لادخال الجديد في اطار البنيات العقلية الموجودة سابقا ، و ايجاد بنيات جديدة اكثر تكاملا .و عليه فان الذكاء (رحلة انسانية حافلة تخضع لحسابات دقيقة تبدأ من عالم المحسوسات و الملموسات و تنتهي عند عالم التصورات و المجردات) ، و منه حدد **بياجيه اربعة عوامل تدخل في التطور العقلي** و المتمثلة ب : عامل النضج العصبي ، عامل التدريب و الخبرة المكتسبة من التفاعل مع الاشياء ، عامل التفاعلات و التبادلات الاجتماعية و اخير عامل التوازن .

من العوامل التى حددها **بياجيه للتطور العقلي** ، يمكننا أن نستخلص انه قد انطلق في الأساس من **البيولوجيا** ، أي أنه حاول أن يؤسس ابستمولوجيته على الاصول البيولوجية للفكر المجرد ، بالإضافة الى **عامل التدريب و الخبرة** التى نكتسبها من تفاعلنا مع الاشياء . و انه رفض تفسير النشاط العقلي بواسطة البيولوجيا ، و اهتم بأشكال النشاط العقلي العليا ، و حاول فهمها بواسطة **البنيات المنطقية** ، أي بإنتاج الفكر الاكثر دقة .

وما يمكن استخلاصه ، ان **بياجيه** صاحب مدرسة فلسفية اصيلة تدعى **بالابستمولوجيا التكوينية** ، أثرت الفكر الانساني ، و ساهمت في تدقيق بعض المفاهيم الرياضية المنطقية و الفيزياء و اللغوية ....الخ . بالإضافة الى تطبيقاتها المثمرة في مجال التربية ، كل ذلك بعيدا عن التأمل النظري ، و انما عن طريق **الاختبارات الامبريقية و الاحصاءات الرياضية**. و التى تسعى الى توضيح المعرفة و المعرفة العلمية بصفة خاصة و ذلك استنادا الى تاريخها ، و الى تكوينها الاجتماعي و الى الاصول السيكولوجية للأفكار و العمليات التى تعتمد عليها بصفة خاصة .